السفير العربي

جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان

الخميس ٣ كانون الثاني ٢٠١٣ ـ الموافق ٢١ صفر ١٤٣٤ هـ ـ العدد ١٢٣٧٢

AS-SAFIR Arabic political daily – January 3, 2013 N° 12372

17 | 1

«نبض» مسلسل مصور يجول على الانتفاضات العربية. ٨ حلقات، أبطالها مدونون شباب، من النساء والرجال. نقيس عبرهم نبض مجتمعاتهم. وهي وقفة بمناسبة سنتين على الثورات.
2

معرض الكتاب في العراق افتتحه وزير التجارة، وجال فيه وزير الثقافة الذي هو وزير دفاع في الوقت نفسه! قاطعه المثقفون. ومقالة عن التقاعد المبكر القسري في البحرين.
3

سيارة سايبا الايرانية الصفراء غزت شوارع بغداد، وبالمقدار نفسه أصبحت موضع تندر العراقيين، بسبب اسمها الذي يشبه «السائبة»، وبسبب خفتها غير المحتملة.
4

«الشبيحة» في سوريا: من مافيا إلى ميليشيا

ظلت الدولة السورية وأجهزتها الرسمية طوال سني حكم البعث، مؤسسات واجهية، وهذه واحدة من سمات نظام التسلطية الأمنية الحاكمة التي قامت بتغييب آثار التراتبية في الدولة لصالح تعدد الأجهزة الأمنية الحاكمة، ونقل وتبديل السلطات فيما بينها، وتنظيم تنافسها التناحري ضمناً، مع استمرار استيلاد الجديد منها عند مواجهة أي تغيّر ظرفي مهدِّد لبقاء النظام، والإبقاء على القديم بشكل موازٍ، وتخفيض الصلاحيات حيناً وتعزيزها حيناً آخر.

تقسيم العمل بين الأجهزة

واليوم، تسعى السلطة السورية، عبر أجهزتها القديمة كلها، من فرق نخبة الجيش وعشرات الأجهزة الأمنية، إلى إنجاح القمع وجعله مثمراً، عبر تدمير المناطق الثائرة بالقوة النارِّية، وتفكيك حواضنها بالتهجير الممنهج الذي تدفع إليه المذابح الجماعية. ويبدو تقسيم العمل بين الأجهزة على الأرض هشاً وغير واضح التخوم ومناطق النفوذ. لكن الجليّ أن جهاز الشبيحة المستحدث قد تسلم مهام عمليات التطهير في معارك الكر والفر بين النظام والمنتفضين، بدءاً بالنهب الواسع والشامل للمدن والقرى والأحياء، وصولاً إلى ذبح السكان.

منشأ وأصل الشبيحة الطبقي والاجتماعي والثقافي

شهدت المدن الساحلية السورية المطلة على شواطئ البحر المتوسط، منذ أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي، ظهور عصابات سيطرت على تجارة التهريب، وتحكمت في المعابر غير الشرعية للموانئ البحرية. دارت هذه العصابات في فلك عائلة «الأسد»، وهي متشكلة فعلياً من سكان الريف الجبلي الفقير المحيط بالمدن الساحلية، الذي ينتمي معظم قاطنيه إلى الطائفة العلوية. تقوم عقيدة الشبيحة على الولاء المطلق لزعمائها، وتتميز بطبيعتها الإجرامية، وتفلتها من العدالة، واستعلائها على الدولة والقانون، لشمولها بحماية زعماء كبار من عوائل الطائفة العلوية، الذين يتشاركون مظلة المصالح والعلاقات العائلية مع رؤساء الأجهزة الأمنية، مما ساهم في إعطائها سمات «المافيا».

يبدو بأن اسم «شبيحة» هو أفضل وصف دلالي لهذه العصابات، فهو يوحي بالرهبة والخوف، كما يدلل على طبيعتها العنفية، ونوعية أعمالها. فهي أشبه بالأشباح التي تظهر فجأة فتعيث فساداً، ويتصف عالمها الداخلي بالغموض والسرية، رغم ما يتبدى من دونية أتباعها تجاه تسلطية و«زعرنة» متنمريها وزعمائهم، الذين غالباً ما قاموا بتنفيذ أعمالهم علناً، مما يدلل قطعاً على مكانتهم فوق – الدولة.

إن معظم منتسبي الأجيال الأولى من هذه العصابات هم من صغار المزارعين، أو العمال المحرومين من الملكية الزراعية، أو الذين لا يملكون أية موارد متحصلة من العمل الزراعي، والذين قادتهم وعورة الجبال وسوء تنميتها، وضعف الإنتاجية الزراعية، إلى هجر الريف والتوجه إلى مدن الساحل، وخاصة بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية الإلزامية، ودفعَهم عدم الكفاءة الناتج من سوء التحصيل الدراسي والأمية، إلى العمل كمياومين في ميناءي اللاذقية وطرطوس ومرافق

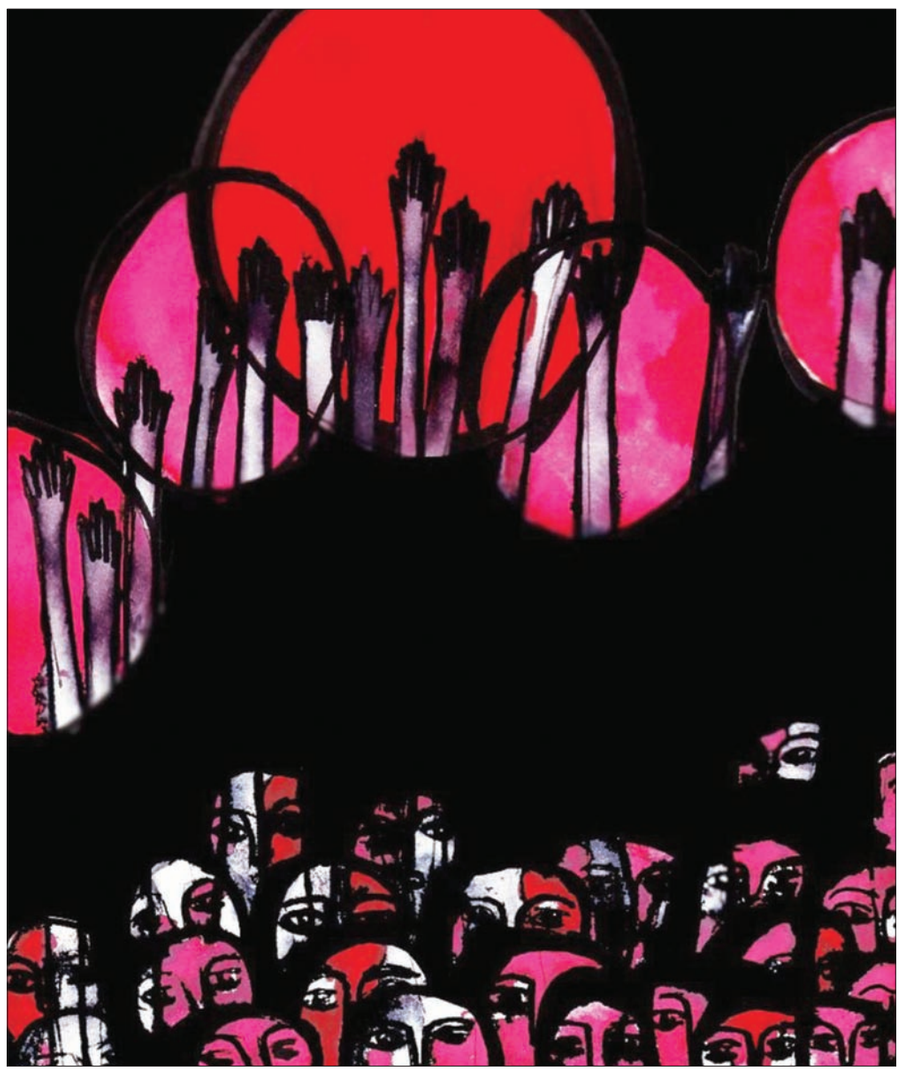

بيسان الشريف ـ من صفحة «فنون الثورة السورية» على «الفايسبوك»

وخدمات المدن، أو كبروليتاريا رثة تقوم بأعمال ثانوية، كبيع السجائر والسلع المهربة وفتح الأكشاك على الأرصفة. خلق كل ذلك بيئة ساعدت في تحول شريحة منهم إلى مجرمين صغار وبطانات لزعماء محليين. وهم تجمعوا كشلل قبضايات وزعران، تدير عمليات مافيوية محدودة، ظلت ضمن أطر معقولة ومسيطر عليها، حتى منتصف السبعينيات.

حصة في اقتصاد الحرب

كانت النقلة النوعية في تاريخ هذه المجموعات بعد وصول حافظ الأسد إلى الحكم، هو تشكل زعامات لها من أولاد عوائل السلطة، في أطر تجارة تهريب التبغ والمخدرات والأجهزة الكهربائية، من المنافذ البحرية، ومن لبنان إلى الداخل السوري المغلق بفعل سياسات البعث.

ويطرح هنا سؤال ينطبق على سوريا كما على سواها من الانظمة المشابهة، حيث يؤدي تحكم السلطة بالنشاط الاقتصادي بصورة قاطعة واحتكارية، في ظل ضعف الانتاجية والميل الى الاقتصاد الاستهلاكي (وتمويت القطاع العام)، الى بروز أصحاب الامتيازات والأفضليات من أبناء الحكام أو أقربائهم، الذين ينالون رخص الاستيراد الحصرية والتوزيع الخ... كما يؤدي الى ولادة اقتصاد مواز قائم على التهريب الذي ينعم بغض الطرف من قبل السلطة، وهو سماح يناله أيضاً المفضلون من أقرباء الحكام.

أدى ذلك التهريب، الذي سهلته سنوات الحرب الاهلية في لبنان، ووجود الجيش السوري فيه، الى تراكم أرباح طائلة، ونمو سلطة متفارقة وموازية للسلطات المحلية، تحكمت في مناطق نفوذ امتدت مع الزمن لتشمل الداخل السوري. لقد توسع اقتصاد الحرب الذي ساد في لبنان اجمالاً، وبالأخص خلال سنوات الحرب الاهلية الطويلة، ليطال سوريا بحكم التداخل الشديد بين البلدين.

الترييف القسري للمدن

ويعتبر الزمن الذهبي للشبيحة، كعصابات «اقتصادية»، هو الفترة الممتدة من منتصف السبعينيات إلى نهاية التسعينيات. حينها تكرست كمافيا، تتشابك مصالحها مع النظام وتتكامل، وتزرع الرعب في نفوس سكان الساحل، حتى من العلويين أنفسهم. وظلت أخلاقها وقيمها تندرج في باب الترييف الممارس قسراً على المدينة، بقوة السلاح والعلاقات الأمنية – الطائفية. وهي تميزت بفرض حداثة شكلية رديئة الذائقة، تنحو باتجاه الاستعراض القائم على القوة الباطشة والجلفة، حتى في العمران والموسيقى.

من مافيات إلى مليشيات

مع بداية الانتفاضة السورية، في آذار/مارس ٢٠١١، بدأ يتواتر اسم الشبيحة كمليشيات مقاتلة ضد المتظاهرين، حيث تفيد المعلومات المتقاطعة من مختلف المناطق السورية، عن نشوء تشكيلات مقاتلة جديدة، غير نظامية، تُستقطب من أوساط المهمشين العاطلين عن العمل وغير المتعلمين وأصحاب السوابق، والمجرمين واللصوص ومدمني المخدرات وتجارها، المطلق سراحهم بكثافة بناء على مراسيم العفو الجمهوري التي فُصِّلت على مقاسهم. وتفيد تلك المعلومات المتقاطعة نفسها بأنه أشرف على تجنيد عناصر تلك التشكيلات، فرق حزبية وأجهزة أمنية، وبعض العائلات والعشائر ممن يمتهنون التهريب والأعمال غير الشرعية، وبعض الزعامات التقليدية والدينية. أطلق على هذه المليشيات اسم الشبيحة، وبدأت تظهر في كل المناطق السورية في فترة متقاربة. وكانت تضم في صفوفها أناساً من جميع المذاهب والطوائف والقوميات، وتقوم بمهام شتى، بدءاً من تفريق المظاهرات بقوة السلاح، إلى ملاحقة وترهيب الناشطين، وإقامة الحواجز الطيارة والثابتة في عمق الأحياء السكنية، والسطو على بيوت المغتربين والأغنياء، والمعارضين، وخطف الناس وطلب الفدية. وتختلط تلك المجموعات بمن يُسمَّون «اللجان الشعبية المسلحة»، ويظل ولاؤها المطلق لزعمائها كشكل من أشكال الاستزلام والتبعية، إذ أنها تخلو تقريباً من مراتب وسطى، وتتلقى أوامرها مباشرة من «المعلم» أو«الزعيم» أو«الكبير»، وهي صيغ شديدة المرونة والفعالية.

... التهديد بحرق البلد

إن التحول من صيغة العصابات إلى جهاز قمعي على شكل ميليشيات، بدأ مع التحول من مبدأ «الأسد الى الأبد» إلى «الأسد أو نحرق البلد»، المترافق مع شن السلطة لحربها المفتوحة على الشعب السوري الثائر ضدها، والتي سُجِّل فيها دخول كبار متمولي السلطة وأثريائها على خط دعم النظام، حيث تواترت الأنباء منذ منتصف العام ٢٠١١ عن قيام تجار وشركات كبرى وجمعيات خيرية بتطويع وإعداد عناصر الشبيحة وإمدادهم بالمال والسلاح. والأنباء تقول إنه وزعت على كل متطوع بندقية وراتب شهري يبلغ ١٠ آلاف ليرة سورية، وتم توكيلهم بالمهام القذرة، بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية. وبالعموم فقد تم تعميم نموذج الشبيحة الناجح في الساحل على الجسد التنظيمي لهذا الجهاز، وإن كان الرأس قد ظل حكراً على زعمائها التاريخيين من آل الأسد: «نمير الأسد» و«محمد الأسد» الملقب بشيخ الجبل»، وآل «مخلوف» و«ديب».

منحى الصفاء الطائفي

مع الوقت، ظهرت حالة التنقل بين شبيحة المناطق المختلفة، حيث تقوم باصات النقل الداخلي، وخصوصاً أيام الجمعة في ذروة التحركات العامة، بنقل مجموعات الشبيحة من مناطق الى سواها لضمان عدم وقوع مواجهات بينهم وبين ذويهم من المتظاهرين. لكن هذا الإجراء لم يصمد أمام امتداد التمرد الشعبي وتمكنه من أدواته، وبدأت جماعات الشبيحة تقتصر على أبناء الأقليات بصورة متزايدة، وعلى العلويين تحديداً، علاوة على أبناء عدة عشائر سنية تدين بالولاء للنظام، هذا مع عدم احتساب الحالات الفردية.

النهب بديلاً عن المرتبات

ومع انحسار الإمكانيات المالية للنظام منذ نهاية العام ٢٠١١، بدأت عصابات الشبيحة تعاني من نقص في مواردها، وعدم انتظام في تسلم رواتبها. وترافق ذلك مع إطلاق يدها المتزايد على أملاك المواطنين في مناطق الاقتتال، وخاصة في حمص. ونتيجة لكون مجموعات الشبيحة صارت شبه صافية طائفياً، فإنها تخوض معاركها بـ«دافع» طائفي و«تبرير» ديني لما ترتكبه. ولكونها ذات تكوين طبقي متماثل من البروليتاريا الرثة، فإنها تشكل فعلياً مليشيات من المفقَّرين المعوزين الذين ينهبون كل ما يجدونه. وليس غريباً بأن تكون «فرقة الجراد» إحدى أهم تشكيلاتهم القتالية مزدهرة الأعمال، و«البستان» هي جمعيتهم الخيرية.

يقوم الشبيحة بالجانب القذر من معارك السلطة. يدخلون غالباً إلى المناطق المحاصرة من قبل الجيش بعد إنهاكها بالقصف وتجويعها زمناً طويلاً، كما حدث في الحولة والقبير وداريا والتريمسة وغيرها، ويقترفون مذابح بمختلف صنوف الأسلحة، حيث الهدف هو ممارسة عنف ارهابي، فيقتلون كل ما يتحرك، ثم يأخذون كل ما يمكن نقله، ويكسرون ويحرقون كل ما تبقى. وغالباً ما امتدت طوابير السيارات والشاحنات المحملة بالغنائم مسافات طويلة، وهي تُقتسم بينهم وبين ضباط الجيش والأمن، وفق نسب معينة يبدو أنه متفق عليها سلفاً. وفي حين يحتفظ زعماؤهم بحصصهم من المال والمصاغ، غالباً ما يقوم عناصر الشبيحة ببيع غنائمهم من آثاث وكهربائيات إلى أسواق جديدة بدأت تنشأ لعرض هذه البضائع، ضمن مسمى «أسواق السنّة»، لتشير إلى مصدر البضائع الطائفي!

تكاد مؤسسة «الشبيحة» اليوم تعمل باستقلال ذاتي، تديرها مجموعة اقتصادية ـ أمنية سبق لها أن سيطرت ونهبت الاقتصاد السوري في العقد الماضي. وهي تمتلك تنظيمياً جيشاً من القاتلين المحترفين بأجر، يقدر أن عددهم يزيد على الـ ٦٠ ألفاً. وعبر «الشبيحة» وممارساتها، يدفع بالبلد إلى حدود الهذيان.

شكيب الورّاق

باحث في علم الاجتماع من سوريا

السائح الخليجي في المغرب، من الممنوع إلى المباح

يصل الأشقاء قادمين من «مدن الملح» إلى المدن الساحلية المغربية بكثافة. يسهل تمييزهم عن باقي السياح. لا يحملون كتباً ولا كاميرات بخلاف الأوروبيين. ويمكن ملاحظة طريقة مشيهم أيضاً، من قرط ركوب السيارات نسوا استخدام أقدامهم وكبرت الكروش. جاء الأشقاء للاحتفال برأس السنة الميلادية. يحدقون في الصبايا يمشين بطريقة راقصة بسبب الكعب العالي الذي يبرز الأرداف. يجري التعارف باللهجة الخليجية. تستقبل الصبايا الأشقاء بود. تتحسن العلاقة بعد إدخال تعديلات على الطرفين ليحصل القبول. فللصبية شروط، تريد من رفيقها أن يشذب لحيته ليتلاءم مع المشهد، أن يرتدي ملابس جديدة. حتى أنه من فرط السرعة تبقى بطاقات العلامات التجارية للقمصان متدلية على الظهر. غير أن الزائر الشقيق يحتفظ بالصدل لأنه يكره الجوارب التي تخنق قدميه ويتخلص من العقال الذي يخنق رأسه.

هو أيضاً له شروط، خاصة في الزيارة الأولى، يخجل من السير برفقة صبية ترتدي ملابس النوم نهاراً. ويشتري لها عباية وخماراً أسود، فيزداد التقوى في كلامها. هكذا يتم تبادل التأثير الذي يتعمق مع العيش المشترك. غير أن العيش في محيط الكورنيش مكلف. تشتكي الصبايا أن كرم الخليجيين قلّ، مع ذلك يمران بمحل لصرف العملات فتصير الصبية مما ملكت يمينه أو شماله.

في الأيام الأولى يقيمان في فندق مراقب قليلا. بعدها يتم الانتقال لشقق وفيلات مفروشة في أحياء راقية محصنة لا تعتقل الشرطة زوارها الأجانب. مع الزمن ترن هواتف الصبايا بنغمة خليجية، خاصة أغنية «ما الحب إلا للحبيب الأول» التي سرقها الجسمي من الشاعر أبي تمام. المهم أن السياحة المغربية بخير. صحيح أنها تراجعت بنسبة واحد في المئة في ٢٠١٢.

ولكن هذا خبر جد سعيد مقارنة مع باقي الدول. فقد استمع الأشقاء للنصيحة الثمينة التي قدمتها لهم وزارات الخارجية في بلدانهم. وزارة الخارجية السعودية أشارت إلى مواطنيها «بعدم السفر إلى لبنان بسبب الوضع السياسي والأمني المتدهور هناك»، وكذلك فعلت الخارجية الكويتية.

بعد التحذير قلّ توجه الخليجيين للبنان. وللتعويض استدعيت هيفاء وهبي لتغني في البحرين. لكن عدداً من نواب البرلمان البحريني رفضوا ذلك. ومن باب الانتقام، حصلت هيفاء على دعوة للغناء على يخت، وتلقت هدايا ذهبية بالجملة. يبدو أنه كانت للنواب البحرينيين مبررات لم يعلنوا عنها في حينها.

المهم أن قلاقل الشرق الأوسط تفيد المغرب، البلد السّني المدعو ليتخلخل قريباً، رغم وضع المقترح في الثلاجة. وفي انتظار ذلك، يأتي الأشقاء لقضاء أيام جميلة. ولهذا مفارقات. فقد انتقلوا فجأة من فضاء فيه «كل شيء ممنوع» إلى «كل شيء مباح».

في مدن الملح، توجد رقابة شديدة، حين ذهبت لمكة للعمرة، كان الحرم المكي هو المكان الوحيد الذي فيه اختلاط بين الجنسين. حوله تبنى أبراج أسطورية، لكن ما أن تبتعد عن الأماكن المضاءة حتى تكتشف أن ليس الجميع أغنياء هنا. في مطار جدة كنت أطالع كتاب «روسيا بوتين» فطلب مني أحدهم إخفاءه. حين يرتفع الأذان يغلق البنغالي باب «السيبيركافي» إلى أن يمرّ وقت الصلاة ثم يفتحه. لا أحد ينقطع عن تويتر. هذه الأيام حكم على امرأة سعودية تزوجت بدون إذن بالجلد والسجن. لو كانت سخرت من أبي متعب كما فعلت الراقصة سما المصري مع دستور الإخوان لكانت دفنت حية. حوكم شاعر قطري بالمؤبد لأنه سيقلب نظام الأمير بقصيدة. هذا الخليج فضاء بلا نوافذ، سجن كبير، يبدو أن عظمة دبي تنبع من الفضاءات المغلقة حولها، وهي متنفس يشحذ الأحلام.

في تلك الفضاءات المغلقة التي خصص لها عبد الرحمن منيف خماسيته الرائعة، توجد مراقبة، شرطة دينية، قمع سياسي وإعلام ممول جيداً لغسل الأدمغة. ما هو أثر العيش في فضاء مغلق ومراقب على جسم الفرد ونفسيته؟

يكون الزمن رتيباً في الفضاءات المغلقة. وهي تسبب الإحباط والشراهة وبالتالي السمنة، حتى الضباط يعانون من السمنة. ثم إن المراقبة تولد الحذر والشك، والرغبة في الفرار.

لذلك يأتي الأشقاء للمغرب، للمكان المفتوح حيث يمر الزمن سريعاً، وحين يحل وقت الرحيل يقومون باستخلاص مزدوج فيه حسد وسخرية.

حسد على لذة العيش في فضاء مفتوح يوفر كل المتع لمن يملك النقود، والسخرية من الصبايا الفاسقات. حين يركب السائح الطائرة للعودة لبلده يستغفر الله العظيم على ما جرى ويحمد الله على نقاء بلده. وحين تلمس عجلات الطائرة مطار عاصمة ذاك البلد يفكر متى سيأتي مجدداً الى المغرب.

كان يمكن للمغرب أن يرحل للخليج بدون فيزا، لكن الاعتراض من الصوت النسوي الخليجي كان مسموعاً. في أيار/مايو ٢٠١١ طالب الملك السعودي عبد الله بانضمام الأردن والمغرب لمجلس التعاون الخليجي، أثار ذلك جدلاً عن الأسباب والدوافع. كان الناس حسني النية قد أملوا خيرا من الأشقاء الخليجيين. واعتبروا ذلك فرصة للم الشمل والوحدة الإسلامية والعروبة...

كانت تلك لحظة تاريخية مختلفة، فمع اشتداد الاستقطاب الطائفي في الشرق الأوسط، يجد المغاربة أن السعوديين أقرب إليهم. ثم إن الصبايا السنيات أفضل من الشيعيات رغم أن الأمراض الجنسية لا تعرف الطائفية.

حينها وافق الملك عبد الله الأردني على الانضمام للمجلس. في المغرب حرك الملك محمد السادس رأسه ولم يعرفوا هل قال لا أم نعم. وقد كان ذلك تكتيكاً لكسب الوقت في انتظار اتضاح الرؤيا. ينظر المغاربة للشمال لا للشرق.

المهم أن الاقتراح مات.

محمد بنعزيز

كاتب وسينمائي من المغرب

٢٠١٣، عاش الصراع!

ثقيلاً مرّ عام ٢٠١٢. سفك الدماء تجاوز كل خيال، كما هو حال سوريا، علاوة على خراب بيوت الناس (بالمعنى الحرفي) وتشردهم على طرقات النزوح. وحال الناس ومصيرهم أصلٌ في السياسة وليسا تفصيلا. والثورات التي انفجرت هنا وهناك، تبدو متعثرة، ملتبسة النتائج. فلألف سبب، فرضت نفسها سياقات ضغطت الفترات الانتقالية زمنياً بشكل كبير (وقد أعلن مرسي نهايتها في ما يخص مصر!)، واختزلتها ببعض الإجراءات، فحوَّلتها إلى مسارات شكلية: انتخابات متسرعة تكرس الفائز في السلطة، فيتصرف كفرعون صغير، متعجل على الاستبداد، متوسل التحايل عندما لا يتمكن من القمع. تَشَابَه الحاضر مع الماضي الذي جرى الانتفاض عليه، إلى حد أوحى بأنه لا جديد، غير التغيير في الأسماء. بل أخطر من ذلك: كأن الفريق الجديد يقدم نفسه بديلاً أجدر من القديم في تنفيذ المطلوب. اقدر على إقناع الناس وتسييرها، يمتلك شرعية لضبطها، ويعرف كيف يتجنب الفساد الذي استشرى سابقا إلى حد كاريكاتوري... أليست تلك هي مفردات التفاوض الجاري مع الغرب؟ وفي الخلفية تستمر الانشطارات العمودية نفسها: حرب سنية / شيعية ضروس، حين لا تقطع الرؤوس، فهي تسمم العقول والنفوس. فوضى عظيمة، وإفقار متعاظم. ما يحمل على الخوف والقنوط.

... لولا أن من لا يرى سوى ذلك من المشهد العام للمنطقة يقارب الواقع من زاوية واحدة، متأففاً من التناقضات، ويفوته أن «التاريخ لا يتوقف عن صناعة نفسه»، وأنه ليس فيه لحظة جامدة، قابلة للاقتطاع بذاتها. ينسى أو يتناسى أن مجتمعاتنا قد ثارت، وأعلنت عن رغباتها، وإراداتها، بينما كان كل شيء قد صُنع بإحكام لتبقى راكدة، تستقبل أيامها كقدر محتوم. لم تستسلم. وهي اليوم، بإزاء ما تعيش، تتجاوز خيباتها وتصارع. تصارع ما تراه رديئاً، وقد تغلبه، فتقاوم لتدفع إلى مزيد من الحرية والمساواة والعدالة والتضامن والإنسانية. تجهر بقيم غُيِّبت وظُنَّ أنها مُحيَت. تُعلنها وتمارسها عملياً. هل من حاجة لأمثلة عما يجري في ميادين التحرير، عن الحيوية الدافقة في الشوارع، عن الإبداع الذكي، عن استعادة الطرافة؟ من مصر إلى العراق (حيث صدحت عشرات ألوف الحناجر في محافظة الأنبار منذ أيام بـ«هذا الوطن ما نبيعه، أخوان سنة وشيعة»). وقد يغلبها مرات ما تراه رديئاً. فتعود لتصارع. هي إذاً حية. ذلك هو الأمل، وهو واقعي تماماً... علاوة على أن التفاؤل عاطفة ثورية!

نهلة الشهال

العربي السفير

ملف

٩٦ انتهاكاً رُصد بحق الصحافة والإعلام في الأردن خلال العام ٢٠١٢، مقارنة بـ ٨٧ انتهاكاً للعام ٢٠١١، بحسب التقرير السنوي لمرصد الإعلام الأردني في «مركز القدس للدراسات السياسية». وترتبط زيادة حالات الانتهاك بانطلاق الحراك الشعبي. وقد احتلّ الاعتداء الجسدي والتهديد وسوء المعاملة بحق الصحافيين المرتبة الأولى في سلم الانتهاكات.

صعود الإخوان إلى الهاوية بتساقط أسطورتهم

غرافيتي في أحد شوارع القاهرة

عاشت جماعة الإخوان أكثر من ثمانين عاماً تحلم بالوصول إلى السلطة. وما إن تحقق هدفها حتى بدأت سريعاً رحلة التراجع. أي أن ما فعلته كان صعوداً إلى الهاوية، سواء بسبب انكشاف عيوبها، من قلة الخبرة وسوء الإدارة، أو لاتضاح أن المسكين بمقود الجماعة الآن ليسوا «الإصلاحيين» الذين قدّموا قبل الثورة إلى أجهزة الإعلام، وهم قلة، بل «المتشددين» المخلصين لأفكار سيد قطب. فـ«المعرض» كان شيئاً مختلفاً تماماً عن «الورشة».

سيد قطب: الناقد والشاعر، والمحتفي بالعدل الاجتماعي، ثم الناقم. تنقسم أعماله الى ثلاث مراحل، فيها الناقد والشاعر، ثم المفكرالإسلامي المنحاز إلى العدل الاجتماعي وجماليات النص القرآني، وأخيرا الحانق الناقم على كل شيء، الذي يرى الدنيا من ثقب إبرة، أو من كوة الزنزانة التى استقر فيها قبل أن يذهبوا به إلى المشنقة. يذكر الأدباء لقطب مرحلته الأولى بامتنان، وقالوا عنه إنه «أول من قدم نجيب محفوظ»، ويذكر المعتدلون مرحلته الوسطى وقالوا إن كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سفر لا يُبارى. وقد نسي المتزمتون هاتين المرحلتين واحتفوا بمرحلته الأخيرة وأشاعوا عنه أنه قال في آخر أيامه: لا أريد أن ينسب إلي مما كتبت سوى «معالم في الطريق»و«في ظلال القرآن».

حسن البنا مقروءاً في ظل التلمساني

وأما حسن البنا، الذي اغتيل في شباط/ فبراير من عام ١٩٤٩، فقد كان على رأس الجماعة يوم انتشرت كتبه ورحنا نقرأها، رجل رائع رائق معتدل هو عمر التلمساني، نسمع عنه كل خير ونقدره، حتى لو لم نتبع خطاه. ثم سمعنا وشاهدنا ما جرى للجماعة بعد رحيله من الانتقال مجدداً من «الدعاة» إلى «القضاة»، ونسيان التربية التى تروم تسامي الأخلاق وامتلاء الأرواح، لحساب السياسة النازعة إلى المكر والدهاء والكذب والخديعة. كان البنا «منظماً» عبقرياً على الأغلب، وليس «منظراً» كبيراً، إلا أن حديثه عن الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي المتدرج كان لافتاً للانتباه، بقدر إمكانياته المبهرة في بناء شبكة اجتماعية متماسكة تقوم على أكتاف تنظيم صارم. وقد رفض الإخوان فى البداية أفكار سيد قطب، وكانوا يقولون «ليس منا». إذ إنهم ببساطة ضاهوها بما تركه لهم مؤسس الجماعة، فوجدوا الشقة واسعة بين من يسعى إلى التغيير الهادئ، الذى يقوم على «الحكمة والموعظة الحسنة» فى الغالب الأعم، وبين من يفكر فى حرق المراحل والقفز على السلطة من دون أن يكون المجتمع قد تهيأ بعد للفكرة التى يحملها فى رأسه وتؤرقه ويكرس عمره ليراها متجسدة فى الواقع المعيش.

تنظيم الإخوان هو الهدف

ومع الأيام صار التنظيم هو «البقرة المقدسة»، وتقدم «التنظيميون» المحتفون بتجربة أسلافهم فى «التنظيم الخاص»، حتى أمسكوا بتلابيب الجماعة وتحكموا بأموالها وهياكلها ومنهجها، وراحوا يتخلصون تدريجياً ممن يخالفهم الرأي والنهج داخل الجماعة. ولذا لم يجدوا غضاضة فى القفز إلى الكراسي الكبرى، من دون أن يعتنوا بالإجابة عن ثلاثة أسئلة: هل المجتمع تهيأ تماماً لقبول ما لديهم ولذا سيدافع عنه ويتمسك به إلى الأبد كما كان يحلم البنا؟ وهل يمكن أن يؤثر أداؤهم سلباً على صورة الجماعة التى أكسبتها تعاطف كثيرين أيام حكم مبارك؟ وهل يمكن أن يتراجع مستوى التدين فى مصر عموماً حين يرى الناس أن من ظنوا أنهم «رجال الله» أو «بتوع ربنا»، مثلما يقال على ألسنة العوام، هم فى السياسة شأنهم شأن من كان الإخوان ينعتونهم بالابتعاد عن شرع الله؟ وأن«الإسلام هو الحل» ليس سوى لافتة؟

حصاد الشهور الستة الماضية ليس إيجابياً

حصاد الشهور الستة التي ترأس فيها مرسي البلاد هو أن الإخوان لا يختلفون فى أدائهم عمن لعنوهم. فها نحن نرى اقتراضاً من صندوق النقد الدولي، وتقديم «أهل الثقة» على «أهل الخبرة»، والكيد للخصوم عبر إطلاق الشائعات وتسليط الكتائب الإلكترونية، وعدم الوفاء بالوعود والعهود، وممارسة الخداع على طريقة «ميكافيللي» أو «الآداب السلطانية»والسعي لإرضاء الولايات المتحدة، وإبقاء مصر تابعة للغرب، واحتضان بعض رموز نظام مبارك وتوزيرهم، والانحياز إلى القلة المحتكرة على حساب الكثرة التى تعاني شظف العيش. ووسط كل هذا ينكشف الإخوان أخلاقياً أمام الناس، بعد أن تجلى لهم الفارق بين ما يقال وما يتم فعله.

إن الذين صوتوا للإخوان فى الانتخابات التشريعية لم يصوتوا لمشروعهم وأفكارهم إنما اعتقدوا أنهم «مجموعة سياسية» يمكن الاعتماد عليها وبوسعها أن تساعد مصر فى الخروج من مرحلة الإرباك التى أعقبت الثورة. وأغلب من صوتوا لمرسي فى انتخابات الرئاسة فعلوا هذا ليس حباً فيه ولا في الأفكار التي يحملها، إنما نكاية في العسكر، وخوفاً من عودة نظام مبارك. وإلا لما تبنى مسؤولو الدعاية فى الإخوان أنفسهم شعار «إعصر على نفسك ليمونة واختار مرسى»! وهذا معناه أن النبتة التي غرسها «البنا» وسعى إلى أن تكون شجرة فارعة وارفة الظلال لم تستو على سوقها بعد، إنما استطالت بفعل عوامل طارئة، لتصير هشة في وجه الريح، أو تبقى مثل الثمار التى تنتفخ ورماً حين تمتص أنواعاً معينة من السماد، فتصبح غير مستساغة الطعم.

وبالطبع، فالزمرة التي تتحكم في جماعة الإخوان حالياً حرة في أن تغتال حسن البنا مرة ثانية بسن قلم سيد قطب، وهم مكلفون ومسؤولون وفق هذا الاختيار. أما الخشية حقاً فهي أن يدفع المجتمع المصري كله ثمن هذه التجربة.

«ضيعتموني»

إن السقوط الأخلاقي يسبق السقوط السياسي. هكذا قالت كل تجارب الحياة وسننها. فلو عاد الشيخ حسن البنا إلى الحياة سينظر في عين من يتربعون في غرور وزهو اليوم على عرش الجماعة التي كافح ومات في سبيل تأسيسها، ثم يقول لهم: ضعيتموني. ثم يغادرهم وبعضهم يعيد جملته القديمة التي أطلقها في وجه التنظيم الخاص الدموي الذي انحرف بالدعوة عن مسارها الصحيح: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

في ظل انشغال الإخوان بالإجابة على سؤالهم الملحّ والقاطع والغارق في الأنانية والانتهازية: متى نهيمن على كل مفاصل الدولة؟ ينشغل كثيرون بالرد على سؤال أشد وقعاً ووطأة مفاده: هل يخرج الإخوان من التاريخ؟ ليولوا وجوههم شطر معطيات حقيقة على الأرض تقول بلا مواربة إن «الجماعة» على محك تاريخي، وأن استمرار تماسكها وتواصل نفوذها وحضورها السياسي والاجتماعي المتحكم لم يعد قضية موضع تسليم، وأن الآتي غير الآني وما ذهب.

تململ وضيق في صفوف الإخوان

ذات جمعة من جمع الثورة، وقف سلفيون في ميدان التحرير ليهتفوا ضد الإخوان ويتهمونهم بجني مكاسب على حساب الثوار، واستخدام دماء الشهداء والمصابين أوراقاً للتفاوض مع العسكر. واليوم بعضهم يصطفون معهم ضد فزاعة يستخدمها الإخوان لاصطيادهم مؤقتاً وهي «العلمانيين». فإن أوصلوهم إلى مرادهم سيتخلصون منهم في أول طريق. فهذا ما يعلمه رجل مثل الشيخ ياسر برهامي، في كثير من تصريحاته وأحاديثه. وتزداد حالة التململ وعدم الاقتناع بوضع شباب الجماعة في وجه الناس، فيستعر أوار الحيرة التي تسكن نفوس شباب الجماعة. بل أخذت الشكوك تساور بعض القيادات، في أن رحلتهم الطويلة قد بلغت «التمكن المريح»، مثلما اعتقدوا بعيد الانتخابات البرلمانية والرئاسية. كما أن الهوة مع أنصار عبد المنعم أبو الفتوح تتسع. فمشروعهم بدا للناس مفلساً، وقدرتهم على مواجهة مشكلات الواقع ضعيفة، وخبرتهم في إدارة الدولة ضئيلة، وخصومهم في ازدياد، واليوم ليس أمامهم من سبيل سوى «التغلب». وهذه بداية الخسران. إنه الغرور الذي يدفع أصحابه الثمن في النهاية، فتصوب السهام إلى أجسادهم من كل صوب، بعد أن كان مؤسس الجماعة يراهن على أن حب الناس لهم هو الذي سيدفعهم إلى القيادة، وأن جميعهم سيقبلون يد المرشد أو يبجلونه، بدلاً من أن يتهكمون عليه وعلى كل من حوله.

... وتغيّر في مزاجهم

قبل الثورة، كان الإخواني يتحدث بفخر عن انتمائه السياسي مدركاً أن الناس تراه مناضلاً أو ضحية أو مشروع شهيد. اليوم يأتي الشباب الى التحرير أو يعلقون على ما يكتب في صفحات التواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت، بادئين كلامهم بـ«أنا لست إخوانياً ولكن ...». وإذا اعترف أحدهم بانتمائه للجماعة، يقر بسهولة أن القيادات تخطئ، وأن المخاوف تزداد حيال المستقبل المنظور والبعيد، ولا يثق أي منهم في أن الشومة التي يمسكها في يده حتى يمنع الغاضبين من حرق مقرات الجماعة يمكن أن يحملها إلى الأبد، لا سيما بعد أن اختارت القيادة المتغطرسة طريق المواجهة.

لقد أخطأ رموز «النظام الخاص» وأتباع التفكير «القطبي»، ممن يمسكون برقبة الإخوان حالياً في تقدير الموقف، فتوهموا أن المصريين صوتوا لـ«مشروع الجماعة»، وأن لحظة تحصيل الحكم نهائياً قد جاءت، وأن العسكر الذين لا خبرة سياسية لهم، والقوى المدنية المبعثرة المتناحرة، لم يستطع أي منهما أن يوقف تقدم «الجماعة». فجاهروا في الداخل بالاستغناء والاستعلاء، وأرسلوا إلى الخارج وفوداً لطمأنة العالم حيال نظام حكمهم الذي بات على الأبواب. ولم يكن شيء من هذا صحيحاً، فالمدنيون فاعلون رغم تشرذمهم، والعسكر لم يخرجوا تماماً من الساحة بل احتفظوا بالكثير. بل هم عادوا إلى موقعهم في ٢٤ يناير ٢٠١١، مع استبدال مرسي بمبارك، وجاء على رأسهم رجال ليسوا فارغي الرأس، يداهنهم الرئيس ويطمئنهم على حالهم ومالهم. ولم تتفكك شبكات النظام القديم، لأن الإخون المتعجلين إلى خطف الثورة والسلطة منحوهم من حيث لا يدرون قبلة الحياة، بل تحالفوا معهم مثلما نرى في وزارة هشام قنديل التي تزخر بثمانية من أعضاء أمانة سياسات جمال مبارك!

عمار علي حسن

روائي وباحث في علم الاجتماع السياسي من مصر

فكرة

«مُنكر» مصر

أن يخرج هشام العشري في مصر ليصرّح بمواقفه «المقزّزة» والمخيفة يستدعي السؤال عن الجهة التي ستتدخّل لجمح الرجل ورغباته. هشام العشري، الذي عمل داعية في أميركا ودرّس هناك الدين، أسّس «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في مصر. يقول ان خطوته لقيت تجاوباً وانه محاط بالمشايخ وبالناس. منذ يومين أطلّ على الإعلام معلناً خطّة عمله وبرنامجه التي سيبدأ تطبيقه في القريب العاجل.

عبارات محدّدة وواضحة استعان بها العشري في لقائه الإعلامي. حدَّد عمل الهيئة بمرحلتين أساسيتين. ما يجري اليوم هو مرحلة «التعزير والإنذار». اختار الأقباط أوّلاً، فإنذارهم حاجة ملحّة. سيقوم الرجل بدعوة هؤلاء «المُضللين» إلى الدين الإسلامي عبر توزيع بيانات ومنشورات أمام الكنائس، وسيطبع لهم كتباً ويعقد المؤتمرات لأجلهم. كلّ هذا سيجري لأنّ الرجل يحبّهم ولا يريد لهم اعتناق دين يدخلون بسببه النار بدلا من الجنة. أمّا القبطية (الأنثى) فإن لم ترض بالإسلام فلا بدّ لها من ارتداء الحجاب ولو من دون قناعة. هذا خطٌ أحمر!

اعترض «شخصيّة» هيئة الأمر والنهي المصريّة على الدستور الحالي، وطالب بمنع السجائر والخمور والعلاقات الجنسية خارج الزواج، مشدّداً على أن لا إمكان لانتظار إحداث إجماع وحصول قناعة على الشريعة الإسلامية، بل يجب تطبيقها رغماً عن الجميع... وبالمناسبة، دعا على شيخ الأزهر وتمنّى له الموت القريب.

أمّا الزي في الشارع، فستكون حصّته واسعة مع بدء مرحلة التطبيق. ستُمنع البنطلونات الضيقة للرجال والقمصان المفتوحة، وارتداء السلاسل منعاً للتشبه بالبنات. يؤمن الرجل بالمساواة، فالرجال برأيه كما النساء يمكنهم إثارة الفتنة بدورهم. لا عيب في ارتداء الجلباب لكنّ الهيئة لن تفرضه. ليفرح المصريون!

هذا جزءٌ يسير ممّا قاله المتخرج من كلية التجارة هشام العشري. كلامه أثار الرعب بين الناس. هو ليس كائناً فضائياً، ولا حطّ في الشارع المصري صدفةً. عمله منظّم ومحدّد الخطوات، ومعالم الثقة بالنفس عالية. طمأن الى أنّه في الوقت الحالي لن يتمّ التدخل بـ«اليد» لفرض ما يرغب به. هذه ستكون المرحلة الثانية. هو وهيئته مؤمنان بأنهما ما زالا في المرحلة التثقيفية للتوعية العامّة. تترك اللجنة للشعب وقتاً كافياً لاستيعاب ما سيحلّ عليه من قوانين جديدة.

صرّح الرجل وعكف إلى منزله. اكتفت السلطات المصرية بتصريح مقتضب من قبل مدير إدارة الإعلام في وزارة الداخلية أيمن حلمي. نفى هذا الاخير كلام العشري عن تقدّم الهيئة بطلب إلى وزارة الداخليّة لاعتمادها ذراعاً لها في تطبيق الشريعة في الشارع. طمأن الى أن الوزارة لن تسمح لأحد بترويع أمن المواطنين. وانتهى البيان. توقيت كلام العشري ليس بريئاً. هو انتظر نجاح الدستور بالاستفتاء. هذه الـ«نعم» التي خرجت عن المصريين ستكون ضريبتهم. هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتعرض في السعودية نفسها لنقد شديد، بل ربما لإعادة نظر، أو مطالبات بذلك. يتململ السعوديون من «عجرفة» وظلم الهيئة. ما زالت أصداء «إحباط» الهيئة في السعودية «تخطيطاً» لاحتفال ٤١ مسيحياً بعيد الميلاد، مدويّة إلى الآن. موجة الضحك التي أثارها الخبر تكفي السعودية عاراً لسنين. الشارع المصري بعيد كثيراً عن ذاك السعودي.

بلاد الفن والغناء والرقص الشرقي والسينما لا يمكن إخضاعها بهذا الشكل. لكن القطار دخل سكّته، وأجواء السلطة المصرية منسجمة بالحدّ الكافي لطمس الأصوات المعترضة. «نعم» الدستور المصري عززت ثقة هشام العشري بقدراته، ليفرض ما يكفي من التخلّف والرجعيّة على الناس بحجّة الدين والإسلام. بعد الدستور المعيب في بنوده المختلفة، لم يكن ينقص المصريين سوى هشام العشري وإخوانه الساعين في الشوارع لردع الناس عن الكفر!

زينب ترحيني

نبض

8 / 1

هشام شاب مصري أصيب برصاصة في رأسه خلال الثورة، ودخل غيبوبة استيقظ منها الآن، ليجد واقعاً تتسع فيه مساحات الألم والحلم في آن.
بمساعدة أصدقائه المدونين، سيستكشف خريطة العالم العربي الذي يتكوّن ويولد.

أبطال القصة

هشام من مصر
طاهر من تونس
أنس من سوريا
مريم من البحرين
نجلاء من اليمن
عبد الحفيظ من ليبيا

رسم: كمال حكيم
سيناريو: سحر مندور

العربي السفير

قضية

ثلاث صحف سودانية أعلنت إفلاسها في العام ٢٠١٢، وهي «الأحداث» و«الشاهد» و«اليوم التالي»، وذلك بعدما مارست السلطات ضغوطاً كبيرة عليها دفعتها إلى الإقفال. وقد حُظر عدد من الصحف اليومية في البلاد، من بينها صحيفة الحزب الشيوعي «الميدان». وتقول إدارات الصحف إن أجهزة الأمن تتعمّد منع توزيع الصحف المعارضة لإغراقها بالخسائر المالية.

خريف الباشكاتب وربيع المثقف العراقي

أقيم في بغداد للفترة من ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ولغاية ٦ كانون الاول/ ديسمبر معرض الكتاب الدولي بدورته الثانية، وسط لغط كبير، بدأ في تسميته ولم ينتهِ في مقاطعة الكثير من المثقفين العراقيين له وانتقادهم تنظيمه والتعتيم على إقامته واللبس حول الجهة التي تقف خلف ادارته.

بين أن تكون معارض الكتب السنوية مناسبات ثقافية تحتفي بالمنجز والمبدعين، وتعرِّف بثقافة البلد الذي يقام على أرضهِ المعرض، وتخلق مناخات لتلاقح الثقافات، وبين أن تكون أكشاك متجمِّعة في مساحة واحدة لبيع الكتب، بين هذين الأمرين بون شاسع لا يلتقي إلا في نقطة التسمية والشعارات التي تبدو مترهلة أمام مضمون بائس.

فمعرض فرانكفورت للكتاب على سبيل المثال، الذي يقام في المدينة الألمانية خريف كل عام، يعدُّ واحداً من أفضل معارض الكتب الدولية، ليس لمساحة المعرض الكلية، أو لمساحات عرض الكتب وقاعاتها الأنيقة، بل للأنشطة الثقافية المتنوِّعة التي تقدم على هامش المعرض والتي تعدُّ سنوياً ظاهرة ثقافية عالمية.

معرض من وماذا؟

ويبدأ اللغط بخصوص المعرض العراقي من ازدواجية التسمية، فقد حملت بعض اللافتات تسمية «معرض بغداد للكتاب»، فيما حملت أخرى تسمية «معرض الكتاب الدولي». وساهم انحسار أخبار المعرض في وسائل الإعلام العراقية في هذا اللغط، الذي أعطى انطباعاً للبعض أن المعرض هو الدورة الثانية من معرض بغداد الدولي للكتاب الذي أُقيمت دورته الأولى على أرض شركة المعارض في نيسان/ أبريل عام ٢٠١١ ، وكان مقرراً أن تقام دورته الثانية في نيسان/ أبريل من العام ٢٠١٢، لكن أسباباً غامضة أدَّت إلى تأجيلها.

معرض للكتاب يفتتحه وزير التجارة!

وعزز اللبس افتتاح المعرض من قبل رئيس الوزراء نوري المالكي، يصحبه وزير التجارة العراقي، مما حدا بدار الشؤون الثقافية العامَّة إلى إصدار بيان توضح فيه أن المعرض المقام على أرض شركة المعارض التابعة لوزارة التجارة هو معرض دار العارف («تسمية ثالثة»!) ولا علاقة له بمعرض بغداد الدولي للكتاب الذي ستقام دورته الثانية في نيسان/ أبريل من العام ٢٠١٣، ضمن فعاليات بغداد عاصمة للثقافة العربيَّة.

المثقفون ودور النشر العراقية أبدوا اعتراضات عدَّة بشأن المعرض، منها أنَّهم لم يتلقوا دعوات من الجهة المنظمة، وأن أخبار إقامة المعرض بدأت على هامش افتتاحه من قبل رئيس الوزراء، فضلاً عن افتقاده لأيِّ نشاط موازٍ، مما حوَّله بالفعل إلى مجموعة أكشاك تجمَّعت على أرض شركة المعارض لبيع الكتب العراقية والعربية، وبأسعار افتقدت إلى المنافسة الحقيقية التي تباع بها في شارع المتنبي، وهو الشارع الرئيس لبيع الكتب في العراق.

سندس عبد الهادي ـ العراق

وعزت دور النشر المشاركة ـ وهي أيضاً قليلة واقتصرت على بضعة أسماء فيما طغت الدور الإسلامية ـ السبب إلى ارتفاع أسعار إيجار الأرض (٩٠ دولاراً للمتر الواحد) وغياب أي دعم لوزارة الثقافة في الشحن أو الإيجار أو أي جانب آخر. وكانت الدورة الأولى لمعرض بغداد الدولي للكتاب العام ٢٠١١ قد شهدت نشاطاً ثقافياً قاده «المقهى الثقافي» الذي قدَّم ندوات فكرية وقراءات شعرية واحتفاءات ببعض المبدعين العراقيين كالتجربة المسرحية للمخرج العراقي صلاح القصب. وأما غياب الفعاليات الثقافية عن معرض الكتاب هذا العام فتعطي انطباعاً واضحاً عن غياب التقاليد الثقافية وإغفال محاولات ترسيخها لمصاحبة مناسبات كهذه.

وزير الثقافة والدفاع في آن

غياب التقاليد الثقافية أصبح سمة بارزة في نشاطات وزارة الثقافة العراقية التي يقودها وزير يشغل في الوقت ذاته منصب وزير الدفاع بالوكالة، نتيجة عدم تسمية وزير للدفاع في حكومة المالكي الثانية منذ تشكيلها قبل قرابة العامين ونصف العام، بسبب الخلافات حول اسماء المرشحين. وكذلك هناك غياب مشابه لحقيبة الداخلية وللأسباب نفسها. المقربون من الوزارة يقولون إن جل وقت الوزير مكرَّس لوزارة الدفاع وأن «باشكتبة» وزارة الثقافة مشغولون بأمور كثيرة، لكن لا أمر منها متعلق بالثقافة العراقية، بدليل أن أياً منهم لم يقم بزيارة المعرض، كما أن الاهتمام الحقيقي بالمعرض جاء من وزارة التجارة ومنتسبيها، مما أعطى انطباعاً في الوسط الثقافي أن الدولة تعامل الكتاب معاملة أي سلعة استهلاكية.

خريف الباشكتبة وربيع المثقفين

العواصف التي ضربت مناخ الثقافة العراقية خلال الأسابيع الماضية تشي بحلول خريف الباشكتبة وربيع المثقف العراقي في فصل واحد، فالمثقفون العراقيون الذين يسجلون الكثير من الملاحظات على اتحاد الأدباء العراقيين، هالهم التهميش والإقصاء الذي تمارسه وزارة الثقافة بحقهم. فقد قاطع أكثر من ثمانين أديباً ومثقفاً قبل أيام «مهرجان بغداد الشعري» الذي وجه دعوات إلى أكثر من خمسين شاعراً عربياً، بينما اكتفى بتوجيه دعوات إلى شعراء منتمين إلى شكل شعري واحد، فضلاً عن انتماء بعض هؤلاء إلى منظومة حزب البعث المحظور في العراق. ولم يكتفِ المثقفون بالمقاطعة بل أصدروا بياناً لتوضيح موقفهم من وزارة الثقافة وباشكتبتها.

معرض فاشل ثقافيا وتجارياً

أيام معرض الكتاب الكئيبة في بغداد انتهت من دون أن يحقِّق أياً من غاياته الثقافية أو التجارية، ولم يتبق سوى بضعة أشهر لإقامة معرض بغداد للكتاب، فهل سيتعلَّم القائمون على المعرض المقبل من أخطاء المعرض الفائت، وهل ثمة من يزيح الغبار عن عقول باشكتبة الثقافة ويخبرهم أن المعارض الجديرة بهذا الاسم لا تكتفِ بنشر ثقافة البلد الذي ينظمها، بل تحتفي كل عام بإحدى ثقافات الشعوب الأخرى كما أنها تنتخب كل عام شخصية إبداعية للتعريف بها وبإنجازاتها معظم نشاطاته، وأن بلدية فرانكفورت مثلاً، وتشجيعاً لزوار المعرض، تمنح حامل بطاقة الدخول إلى المعرض حق التنقل في وسائط النقل العامة في المدينة مجاناً.

المعرض أقيم في خريف هذا العام وفق بلادة الباشكتبة وكآبتهم وتواضع امكاناتهم وعدم اكتراثهم. والمعرض المقبل سيقام في الربيع، فهل سيلتقي مع تجدد حيوية المثقف العراقي الذي بدا غاضباً في الآونة الأخيرة، ووصلت مطالباته إلى تغيير طاقم وزارة الثقافة وزيرٍ ووكلاء؟

عمر الجفال

شاعر وصحافي من العراق

لغة العرب: أين المفر؟

لا تجد اللغة العربية اليوم مفرا تلجأ إليه مما يُفعل بها ومعها على أرضها وبيد أهلها الذين ولّوا وجوههم عنها نحو غيرها، فلم تجد بينهم من ينصفها أو يعيد لها الاعتبار. اللغة «الأم» تعاني عقوق الأبناء وتعدم من يمد لها يد الإنقاذ من «الخطر» الذى باتت فيه، على حد تعبير وثيقة بيروت الصادرة في آذار/ مارس الماضي، عن المؤتمر الدولي الأول للغة العربية. بل مر بلا أثر ولا اشارة، «اليوم العالمي للغة العربية»، والذي يوافق الثامن عشر من كانون الاول/ ديسمبر من كل عام، وهو التاريخ الذى أدرجت فيه اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل في الأمم المتحدة. وكان ذلك عام ١٩٧٣.

لقد أصبحت العربية تعاني الإهمال والإقصاء والازدراء، وهى التي قيل ما قيل – من أهلها ومن غير أهلها – في جمالها وسحرها وسعتها وغناها ومرونتها وتفردها بين اللغات حتى تغنى الشعراء بحبها وهواها. وهي تشهد في بلاد العرب تراجعا على كافة المستويات، في البيت وفى المدرسة، على صفحات الجرائد وعلى الشاشات والمواقع الإلكترونية، وفي مقدمتها مواقع التواصل الاجتماعي حيث تكتب بالحروف اللاتينية. على لافتات المحال وفى خطب المسؤولين وفى المكاتبات الرسمية وغير الرسمية. أصبحت أنتِ ولكِ وعليكِ وإليكِ ومنكِ وكل فعل ماضٍ تخاطب به الأنثى، تكتب جميعها بياء في نهايتها بدلا من الكسرة، همزة القطع صارت همزة وصل، وبالعكس الوصل صارت قطع. «غير» تُلحق بها (ال) لنقرأ ونسمع «الغير» مبرر، و«الغير» صحيح، و«الغير» موجود و«الغير» معقول!! خبر كان صار مرفوعا وخبر إن بات منصوبا، يبدو ويرجو وكل فعل مضارع ينتهي بالواو تضاف إليه ألف ليصير «يرجوا» و«يبدوا»، وإذا كان الشاعر العربي قد قال قديما «والمرءُ تكرمُه إذا لم يلحن» – ولحن في كلامه تعني أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب في اللغة والإعرَاب – فإنه لم يعد أحد يستحق الإكرام بعد أن تفشّى اللحن في اللغة وشمِل الجميع على اختلاف مستوياتهم التعليمية والثقافية، صغارا وكبارا، نُخبا وجماهير، سياسيين وأساتذة جامعات وكتابا وصحافيين ومذيعين ومحامين بل وقضاة. حتى الدعاة وأئمة وخطباء المساجد، أزهريون «معمّمون» نسمعهم ينصبون الفاعل ويرفعون المفعول، ونعدد لهم أخطاءهم اللغوية فنجدها بالجملة. ويبدو أنهم لم يسمعوا أن أحد التابعين وهو التابعي الثقة الناسك أيوب السختياني (٦٦ – ١٣١ هـ) كان إذا لحن قال: أستغفر الله ، وكأن اللحن في لغة القرآن يعد ذنبا يستوجب الاستغفار... لقد صار الجميع في «البلوى» سواء.

تتحمل النظم التعليمية العربية المسؤولية الأكبر عن هذا الوضع، ليس فقط بسبب مناهج اللغة العربية التي تحتاج إلى تحديث في محتواها وطرق وأساليب تدريسها، التي لم تتغير رغم وجود طرق وأساليب مبتكرة تستخدم في تعليم اللغات الأخرى، أو المعلم غير المؤهّل، أو غياب الأنشطة المدرسية التي من شأنها أن تؤدي دورا مهما في التنشئة اللغوية الصحيحة للطفل مثل الإذاعة والصحافة والإنشاد والتمثيل وغيرها، ولكن أيضا وفوق ذلك كله ما اتجه إليه القائمون على هذه النظم التعليمية تحت شعار «التحديث» من تدريس اللغة الأجنبية للتلاميذ منذ المراحل التعليمية الأولى، وذلك رغم ما يؤكد عليه الخبراء من ضرورة الاقتصار في هذه المراحل على تدريس اللغة الأم فقط، وألا يبدأ تعليم الصغار لغة أجنبية إلا بعد تمكنهم من لغتهم الأساسية. في مصر على سبيل المثال، نجد أنه بعد أن كانت اللغة الأجنبية تُدرّس في المدارس الحكومية ابتداءً من المرحلة الإعدادية (يكون عمر الطفل ١١ عاما)، أصبحت تُدرّس ابتداءً من الصف الرابع الابتدائي (يكون عمر الطفل ٩ سنوات). ثم ما لبثت وزارة التربية والتعليم أن جعلت اللغة الأجنبية تُدرّس ابتداءً من الصف الأول الابتدائي (يكون عمر الطفل ٦ سنوات). ليس هذا فقط، بل اتجهت الحكومة منذ سنوات إلى ما يعرف بالتعليم التجريبي (لغات)، وهو النظام الذى أصبحت العديد من المدارس الحكومية تعمل في ظله، حيث تدرس العلوم والرياضيات باللغة الأجنبية منذ الصف الأول الابتدائي، فيتخرج الطفل غير متقن للغته الأم، ولا متمكن من اللغة الأجنبية لضعف مستوى التعليم في هذه المدارس «الحكومية» بالتى يباهى أولياء أمور طلابها بأن أبناءهم يدرسون maths وscience في تجلٍّ واضح لـ«عقدة الخواجة». هذا طبعا بخلاف المدارس الخاصة والمدارس الدولية.

وللإعلام أيضا دوره «المهم» في ما آل إليه أمر اللغة العربية، ونحن نرى العامية تطغى على وسائل الإعلام، الرسمية منها وغير الرسمية، وهي العامية التي يمكن وصفُها في كثير من الأحيان بأنها «هابطة» أو «متدنية»، بدلا من استخدام اللغة الفصحى الميسّرة أو ما يطلق عليها اللغة الفصيحة التي يمكن أن يفهمها المتلقي أيا كان مستواه التعليمي أو الثقافي. نرى العامية في عناوين الصحف ومقالاتها بل وعلى صفحات الكتب وفى نشرات الأخبار، بعد أن أبت بعض الفضائيات إلا أن تزيح العربية عن ملاذها الأخير على الشاشة لتُقدَّم نشراتها بالعامية. نراها على ألسنة المذيعين وفى أسماء البرامج التي أصبح التنويه عنها ب«اللى جاى» و«اللى بعده» بدلا من «البرنامج القادم أو التالي»، وأصبح الفاصل بين البرامج «استنونا» بدلا من «انتظرونا». ونرى الوقوع في الأخطاء اللغوية – لكثرته وانتشاره – أصبح شيئا عاديا لا يستوجب التوقف فضلا عن المحاسبة، أخطاء متكررة من قبيل «متظاهروا التحرير» و«بعض المواطنون»، و«مساعدين إخراج»، وغيرها التي توصف بأنها أخطاء «فاحشة»، بالإضافة إلى استخدام اللغة الأجنبية، وقلة نسبة البرامج الثقافية – ومنها تلك التي تُعنى باللغة العربية – مقارنة بالنوعيات الأخرى من البرامج التي تقدم خلال ساعات البث الممتدة على مدار ٢٤ ساعة عبر مئات القنوات العربية الحكومية والخاصة. وحتى هذه النسبة القليلة من البرامج الثقافية لا تقدَّم – في معظمها – في قوالب تجذب القاعدة العريضة من الجمهور بل فقط تخاطب النخب.

كل هذه الصور، وغيرها كثير، التي تعكس واقع اللغة العربية الحزين، سبق رصدها وتقديم المقترحات والحلول اللازمة لمواجهتها من أجل النهوض باللغة العربية من قِبَل خبراء اللغة والتعليم والإعلام وغيرهم، وذلك من خلال العديد من المؤتمرات والندوات والكتب والأبحاث. ولكنها ظلت جميعها حبرا على ورق، وظل التدهور مستمرا، ليبقى حال لغة العرب شاهدا على حال أهلها.

منى علام

صحافية من مصر

من البحرين: صباح الخير، «افتقدنا ابتسامتك»

تحية صباحية تتلقاها عائشة يومياً على «الوتس أب» من زميلات العمل الذي أجبرت على التقاعد المبكر منه في عز نشاطها، صباح الخير، «افتقدنا ابتسامتك»! تشير الإحصاءات الرسمية أن المتقاعدين مبكراً يشكلون ٨٢ في المئة من مجموع عدد الذين تقاعدوا في البحرين خلال السنة الحالية. أما المتقاعدون بسبب بلوغهم السن القانوني (وهو الستين عاماً)، فنستبهم ١٨ في المئة. في الأصل «التقاعد المبكر» يعني الخروج اختيارياً من سوق العمل، إلا أن النسبة المرتفعة كشفت عن ظروف قسرية للتقاعد.

صديقة عائشة، مي، كتبت: «مجبرة على التقاعد المبكر، لا عمل يُسند لي كباحثة متخصصة، لا سيما بعد توقيفي عن العمل بسبب مشاركتي في الحركة الاحتجاجية. احتراماً لذاتي تقاعدت. اهتز تنظيم حياتي، لكني لا أزال أدمن طقسي في الصحو باكراً، أتهندم، أفطر أمام كمبيوتري في عزلتي، أبدأ عملي البحثي الذي أحب، بينما يخترق الضوء نافذة مكتبي الذي أحرص على ترتيبه بالنسق ذاته كما سابقاً، وبأشيائي الصغيرة التي احتفظتُ بها وتنقلت معي أينما ارتحلت في أعمالي. أسوأ ما في الأمر، أن لا أحد يشعر بهول إحساسي بالضياع والفقدان. أصدرتُ تعليماتي للشغالة بنسيان وجودي معها، فلا تحاول إشراكي في الطهي والكنس أو جلب المستلزمات، أن لا تحدث ضجيجاً يكسر الهدوء الذي أحتاج. ولأن توفير هذه الشروط صعب، قررتُ ارتياد المكتبة يومياً بما توفره من عزلة وهدوء». رددت مي لنفسها «وجدتها! مكتبي متنقلاً معي عبارة عن شنطة مدرسية تحتوي مستلزماتي، فطوري، قهوتي ومائي، واللابتوب الخاص بي المزود بشبكة انترنيت... وغيرها. حين انتهي بعد ثلاث أو أربع ساعات كأنني في دوام رسمي، أتوجه بصحبة صديقتي لممارسة رياضة المشي، بيد أنني أفتقد حميمية زمالة العمل، فهنا لا أحد يحادثك، لا نقاش لا تبادل آراء، بالنسبة لي هي معضلة وإشكالية».

لكل متقاعدة مبكراً حكاية تختلف، ولكن أسبابها تبقى مشتركة: واقع سياسي، قهر وظيفي، تهميش، تمييز، الخ... تضيف عائشة: «أعشق عملي، مدمنة عليه حتى قيل لي بتندر: هل سلموك «مفاتيح المدرسة»؟

تسترسل، «لطالما جاء عملي على حساب أسرتي وإرهاق جسدي، وكانت نهايته وشايات أوصلتني لغرف التحقيق ومخافر الشرطة، وتوقيفي ثم طردي من العمل بسبب مشاركتي في الاحتجاجات الشعبية في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠١١». تشاركها أنيسة التي بدأت مشكلتها بسبب نشاط زوجها السياسي، وعانت «تطفيشاً» وتمييزاً طائفياً متراكماً. ولأن صورتها برزت من بين المشاركين في مسيرة مؤسسات المجتمع المدني في انتفاضة اللؤلؤة، أوقفت عن العمل، جرجرت للتحقيقات. وهي تؤكد، كما عائشة، أن «وشاية زميلات» العمل لها تأثير مضر، إذ تبين من التحقيقات أن مفصولي العمل في الوزارة التي عملتا بها هم ٧٨ امرأة مقابل رجل واحد فقط. تردف عائشة: اضطررت لبيع سيارتي كي ادفع رسوم ابني الجامعية بعد قطع مرتباتي أثناء التوقيف. أصبت بغضب وبسلبية تجاه جهة عملي التي ظلمتني حتى بعد إعادتي للعمل الذي كنت أشغله كمديرة مدرسة. مررت بما يشبه الحرب النفسية، خصوصاً عند حضور الشرطة لأخذي أمام طالبات المدرسة ومعلماتها، وكأني مجرمة. بعد عودتي وجدت نفسي معزولة وتحت رقابة ولا عمل كي أنجزه، سوى الانتظار لنهاية الدوام. لم أحتمل، فقررت التقاعد باكراً». وتشاطرها أنيسة: «بعد عودتي جُردت من مهماتي، كنت خائفة من الفصل مجدداً بسبب أي تلفيقات، وقتها قد أخسر سنوات خدمتي، فتقاعدت، إذ ثمة شعور يتلبسني بأن عملي سرق مني».

تهم ومحاكم ثم عزل

ندى تقاعدت هي الأخرى من القطاع العام. تباينت ظروفها شكلاً، بقت معاناتها كما الأخريات. تقول: «التقاعد مريح حين يخطط له المرء بإرادته، لكن جو عملي كان غير مريح وفرص الترقي كانت شحيحة بسبب التمييز الطائفي. برغم ذلك واصلت، ولحظي العاثر، شاركتُ ضمن لقاء دعا إليه «المجلس الأعلى للمرأة» للمساهمة في مساندة المصابين وأهالي شهداء الانتفاضة، خصوصاً بعد الاعتذار الرسمي والسماح للمحتجين بالعودة لدوار اللؤلؤة. هناك تجرأت قائلة إنّ سبب الاحتجاج هو تردّي الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وحال التمييز الذي أوصل للانفجار الشعبي. حال عودتي للعمل وبعد قمع الانتفاضة، عانيت من ضغوطات واتهمت بأني أميز بين الموظفات. الاتهام هزني وهز كرامتي، خشيت من تلفيق قضايا ضدي واستغلال توقيعي، ما قد يؤدي بي للمحاكم. كنا في أجواء بوليسية تفتَّش فيها المكاتب ويجبر الموظفون على التوقيع على وثائق تؤكد الولاء، شعرت لحظتها أن الوضع لا يحتمل فقدمت استقالتي وتقاعدت».

فقدان القيمة

للتقاعد الاضطراري تأثيرات معنوية عميقة ومدمرة، ذلك لأنه يتعلق بالشعور بالفراغ المفروض وفقدان القيمة والدافع في الحياة، والتمييز وبث الكراهية والازدراء لأسباب طائفية أو سياسية تُشحن بها بيئات العمل، وتخلق أجواء تستفز المشاعر وتجعل المعاناة تتعاظم. بالمقابل هناك من تقاعدوا طوعاً لظروف صحية أو إرهاق وظيفي كما تفيد سحر. أما دانه فارتفع التحدي لديها قائلة: رغم جرجرتي للمخافر والتحقيق، وتسريحي من عملي لمشاركتي الاحتجاجات، وتجريدي حتى من طاولة مكتبي بعد العودة، فلا نية لي للتقاعد المبكر. ظروفي لا تسمح، لن أرضخ للمضايقات، سأقاوم الحرب النفسية، الأوضاع ستتغير يوماً ما، لا زالت في مقتبل العمر ولي قدرة على العطاء.

يبقى قرار التقاعد المبكر وظرفه نسبيان يخصان كل شخص. فهو يحدث إما برغبة ونتيجة الحصول على تسوية مالية مجزية، وأما هو أشبه بالطرد القسري من العمل والانتقام، بعدما يسلط على المتقاعد قهر نفسي ومادي، بدءاً من تجريده من مهامه الوظيفية وركنه من دون عمل، فضلاً عن حرمانه فرص الترقي والتطوير والإبداع في ظروف تدفعه دفعاً للتخلص من الجحيم، إذ تضيق الخيارات إلا من تقاعد مبكر، غالباً لا يسمن ولا يغني عن جوع تحقيق الذات.

منى عباس فضل

باحثة من البحرين

مصر الحلوة

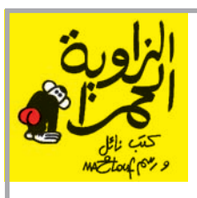

كل شيء من أجلكم أعزائي المشاهدين.

والآن، في هذه الحلقة من برنامج «مصر الحلوة»، يسرنا أن نقدم لكم فقرة تسجيلية مع الإنسان المصري.

تجولت كاميرتنا في بلاد الصعيد الفولكلورية التي تقع جنوب القاهرة، وهي تمتد من محافظة المنيا الفولكلورية وحتى محافظة أسوان شديدة الفولكلورية. التقينا بالإنسان الصعيدي الفولكلوري، الذي على ما يبدو لم يكن راغباً في إعطائنا مقابلة صحافية نظراً لأنه كان مشغولاً بعدة أعمال فولكلورية، كأن يأخذ بالثأر لابن عمه، وفي سبيل ذلك قتل عدة مواطنين فولكلوريين آخرين. سال الدم الفولكلوري وطرطش على الكاميرا الواقعية.

كاميرتنا تحركت أيضاً في محافظة سيناء الفولكلورية ووجدنا أهل سيناء، مشغولين جداً بالإتجار بالمخدرات، حاولنا تنبيههم إلى أننا نصورهم فنظروا للكاميرا بسعادة فولكلورية أصيلة وهم يتبادلون المخدرات والمال. وصلنا إلى الإسكندرية فوجدنا المواطن السكندري الفولكلوري يصطاد السمك. سألناه إن كان يصطاد السمك ليأكله أم ليبيعه، فابتسم وقال إنه لا يصطاد السمك لهذا أو لذاك وإنما يصطاده لأن صيد السمك هو عمل فولكلوري وهو، بطبيعته كإنسان فولكلوري، لا يقوم إلا بكل ما هو فولكلوري. أثناء الحديث سعل. نبهناه إلى أن السعال ليس أمراً فولكلورياً فاعتذر، وسعل مرة ثانية، ثم قال إن عنده أنفلوانزا. أخبرناه أن الأنفلوانزا هي أيضاً ليست مرضاً فولكلورياً، فأخذته نوبة سعال. مش مهم. حذفنا الفقرة في المونتاج.

وهنا، في القاهرة، وجدنا المواطن العشوائي يسمع أغاني المهرجانات الفولكلورية، وفي منتصف المقابلة أخرج مطواة وهدد المخرج إن لم يخرج نقوده فسوف يغرز المطواة في كرشه. شكره المخرج على هذه اللفتة الفولكلورية الجميلة وطلب من المصور تصوير عملية السرقة الفولكلورية بكاملها.

والآن وبعد عودة طاقم التصوير للبلاتوه يسرنا أن نقدم عدة استنتاجات –١– المواطنون المصريون موجودون في أماكنهم، وكل واحد يقوم بدوره الفولكلوري الجميل. لا تقلقوا –٢– حتى عندما يتوقف أحد المصريين، ولو لثانية، عن القيام بواجبه الفولكلوري فنحن نتوقف عن تصويره. الأمر تحت السيطرة. لا تقلقوا –٣– البلاتوه مكان واقعي. ليس هناك فولكلور في البلاتوه. في البلاتوه لا يوجد إلا المرتبات الضخمة غير الفولكلورية. نحن نموت هنا يومياً بسبب قلة الفولكلور.

العربي السفير

متابعات

١١٤ ألف منزل، على الأقل، مهدَّد بالانهيار في مختلف أنحاء المغرب، بينهم ٧٠ ألفاً في مدينة الدار البيضاء وحدها. هي أزمة عشوائيات أعادت الأمطار الغزيرة التي هطلت على البلاد الشهر الماضي تسليط الضوء عليها، بعدما توفي شخصان إثر انهيار منزلهما في المدينة التي تضمّ عشرات الأحياء العشوائية.

تدخل سيارة في عيون العراقيين وتخرجُ نكتة من أفواههم!

إذا كنت واقفاً في مكان مرتفع ببغداد، يطلّ على شارع تتكدس فيه المركبات في إطار اختناق مروري اعتاد عليه العراقيون، وساكنو بغداد على وجه الخصوص، ستلاحظ أن الشارع يتشح باللون الأصفر. وتلك الصُفرة لم تأتِ نتيجة ظاهرة كونية اجتاحت العراق مؤخراً، وإنما شكلتها الأعداد الكبيرة من سيارات الأجرة الصفراء التي بدأت بالتوافد على البلد منذ نحو سنتين، بعد أن قررت مديرية المرور العامة في ذلك الحين تبديل لون سيارات الأجرة من الأبيض والبرتقالي إلى البرتقالي المصْفر. ونالت سيارة الـ«سايبا»، «SAIPA»، الإيرانية المنشأ، حصة الأسد من تلك الصفرة، بعد أن استورد العراق أعداداً كبيرة منها، حتى بات الحديث عنها أحد هو الأكثر تداولاً بين الناس.

جِناس لفظي

باعت الشركة العامة لصناعة السيارات ٣٠ ألف وحدة من هذه السيارة في بغداد فقط منذ بداية استيرادها عام ٢٠١٠ وحتى نيسان/أبريل الماضي. نظر إليها العراقيون على أنها فرصة لا يمكن تفويتها من دون استثمارها في

في موقع التواصل الاجتماعي، «فيسبوك»، أنشأ بعض العراقيين «مجموعات» متخصصة بنشر صور غير مألوفة عن هذه السيارة، مدعومة بالتعليقات الساخرة.

التندر وصناعة النكات. ولعل اسم السيارة يأتي في مقدمة الأسباب المثيرة للرغبة في التندر. فالعراقيون لا يلفظون كلمة «SAIPA» بشكل يتطابق مع اللفظ الإنكليزي لها «سايبا»، وإنما يلفظونها «سايبة»، وهو لفظ عامي واضح لكلمة «سائبة». وهذه، وإن كانت تعني بالعربية الفصحى «الناقة التي تسيّب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة في حرب»، لكنها بنسختها العراقية «سايبة» تعني المرأة المنفلتة. التطابق بين اللفظين سهّل عملية إقحام السيارة الـ«سايبة» في جناس لفظي مع المرأة الـ«سايبة»، وبوجود عناصر مساعِدة أخرى، كصغر حجم السيارة وقلة متانتها وانتشارها الواسع في الشوارع العراقية. تبلورت لدى العراقيين رؤى عديدة لصياغة عبارات الطرفة والتندر بهذه السيارة، ملبين بذلك شيئاً من حاجتهم المُلحّة لمواجهة صعوبة حياتهم اليومية وقسوتها بالضحك والسخرية. والغريب في الأمر، أن أصحاب الـ«سايبات» هم أول من يسخرون من سياراتهم. فقد كتب أحدهم على الزجاج الخلفي لـ«سايبته» عبارة «سايبة ولفَيتج»، (وهو تحريف للفظ «لفيتج» أي وجدتك)، ومعناها العميق: «لي فضلٌ عليك، فقد كنتِ منفلتة ضائعة وقمتُ بإيوائكِ!». فيما كتب الآخر عبارة «مو سايبة، بت عشاير»، ومعناها «هذه ليست منفلتة، فهي ابنة عشائر!» بمعنى انها محكومة بقوانين صارمة ومحافظة. وكتب آخر عبارة «اجه الحوت لحَدّ يفوت»، ومعناها «جاء الحوت فلا يتجرأ أحد على اجتيازه!»، وهو بقصد رد الاعتبار لها. وكتب غيره عبارة «تكبر وتصير همر»، ومعناها ستنمو مثلما ينمو الإنسان وتتحول الى «هَمَر»، تلك السيارة الضخمة والفخمة الشهيرة، التي شاعت في العراق كسيارة شبه عسكرية يستخدمها الجيش الامريكي! وفي موقع التواصل الاجتماعي، «فيسبوك»، أنشأ بعض العراقيين «مجموعات» متخصصة بنشر صور غير مألوفة عن هذه السيارة، مدعومة بالتعليقات الساخرة. أما البعض الآخر، فقد جعل اسمه في صفحته على الـ«فيسبوك» مقترناً باسم سيارته، من قبيل فراس سايبا وحاتم سايبا وعادل سايبا...إلخ.

... عند قوم فوائدُ

لعل القائمين على شركة «سايبا» الإيرانية التي تأسست سنة ١٩٦٦، لم يخطر ببالهم يوماً أن سعادتهم ستوفرها لهم دولة مجاورة سبق أن خاضت مع بلادهم حرباً شرسة عمرها ثمان سنوات. ومع أن هذه الشركة حققت نجاحاً جيداً على المستوى المحلي عندما أعلنت سنة ٢٠٠٦ أن حجم مبيعاتها في السوق الإيرانية وصل إلى ٥٥ في المئة من مجمل السوق، إلا أن هذا الحجم من المبيعات قد لا يتفوق على حجم مبيعاتها في السوق العراقية، فقد أعلنت الشركة أنها صدّرت إلى العراق في السنة الإيرانية الماضية ما لا يقل عن ١٨ ألف سيارة بقيمة تناهز الـ١٠٠ مليون دولار أميركي. ولم تثنِ عيوب السيارة الكثيرة وزارة التجارة عن الاستمرار باستيرادها، برغم كل ما قيل ويقال عنها. وأعلنت مديرية المرور العامة مراراً أنها سجلت على الـ«سايبا» مشكلات ميكانيكية تتعلق بإجراءات الأمان والمتانة، لكن إعلاناتها تلك اقترنت بتأكيداتها على أن وزارة التجارة لم تكترث للتقارير الشهرية التي تقدمها لها بهذا الخصوص، وتستمر باستيراد السيارة. ومن أشهر عيوب الـ«سايبا» أنها مصنوعة من دون إطار حمل أجزاء السيارة (الشاسيه)، الأمر الذي يجعلها عرضة للتحطم السريع جرّاء أبسط حادث مروري، لا سيما عند الأخذ بنظر الاعتبار رداءة المعدن المصنوع منه هيكل السيارة، ووزنها الخفيف الذي لا يتجاوز الـ٩٤٠ كلغ، وقرب أدنى نقطة ارتفاع فيها من الأرض، لا يفصلها عنها سوى ١٦ سم. ولهذا السبب انتشرت رواية شهيرة بين العراقيين مفادها أن سيارة «سايبا» كانت تسير مسرعة فواجهها مطب مرتفع، ولم يتمكن السائق من السيطرة على السيارة لتفادي العائق، أو لتخفيف السرعة الجنونية التي كان يسير بها، فمرّت الـ«سايبا» على المطب المرتفع وهي مسرعة، وأصبحت سيارتين... أي انشطرت إلى نصفين!

مزايا مربحة

لدى وزارة التجارة مبررات تقدمها لإصرارها على استمرار استيراد سيارات الـ«سايبا» بالرغم من جميع الانتقادات التي توجه إليها. فالعراقيون يقبلون على اقتنائها لأنها سيارة «اقتصادية» بحسب ما يرون. وإذا كان لسلبياتها وزن في واحدة من كفتي ميزان الشراء، فإن المعطيات تثبت أن الإيجابيات في الكفة الأخرى أثقل وزناً. وهي تتمثل برخص سعرها مقارنة بأسعار غيرها من السيارات، وقلة استهلاكها للوقود، وانخفاض تكاليف الصيانة، كما قطع الغيار الخاصة بها. وتتراوح أسعار الـ«سايبا» بين ٦ آلاف و٨ آلاف دولار أميركي. ويذكر الموقع الرسمي للشركة أن خزان وقود هذه السيارة يستوعب ٣٧ لتراً من البنزين كحد أعلى. وبحسب موقع الشركة أيضا، فإن استهلاك السيارة يبلغ ٦.٩ لترات لكل ١٠٠ كم، فيما تذكر بعض المواقع الإلكترونية المتخصصة بشؤون السيارات إن الـ«سايبا» تستهلك ٥.٣ لترات لكل ١٠٠ كم على الطرق السريعة، وتستهلك ٩.٥٥ لترات لكل ١٠٠ كم على الطرق المزدحمة مرورياً داخل المدينة. ولأن سير سيارات الـ«سايبا» ينحصر داخل المدن غالباً، فإن احتساب النسبة الأعلى من استهلاك الوقود، أي ٩.٥٥ لترات لكل ١٠٠ كم، يظهر أن سائق الـ«سايبا» الأجرة يستهلك وقوداً تبلغ تكلفته نحو ٤٣٠٠ دينار عراقي (ما يقارب ٣.٥ دولارات أميركي)، إذا ما قطع مسافة بين منطقتين تبعدان عن بعضهما ١٠٠ كم، وذلك عند الأخذ بنظر الاعتبار أن سعر لتر البنزين الواحد في العراق يبلغ

باعت الشركة العامة لصناعة السيارات ٣٠ ألف وحدة من هذه السيارة في بغداد فقط منذ بداية استيرادها عام ٢٠١٠ وحتى نيسان / أبريل الماضي.

٤٥٠ دينارا عراقيا (أقل من نصف دولار أميركي). ولأن أجرة التوصيل بين منطقتين تفصلهما مسافة ١٠٠ كم لا تقل عن ١٥ ألف دينار عراقي (نحو ١٢.٥ دولارا أميركيا)، فإن سائق الـ«سايبا» يحقق ربحاً مقداره ٩ دولارات أميركية – على وجه التقريب– في توصيلة كهذه، مستحصلاً بذلك على أكثر من نصف تكلفة ملء خزان وقود سيارته البالغة ١٦ ألف و٦٥٠ دينارا عراقيا (نحو ١٣.٥ دولارا أميركيا). ويبقى التناسب الطردي في الحسابات السابقة قائماً بين طول المسافات وحجم استهلاك الوقود، وبين مقدار أجرة النقل. هذه المزايا الربحية في استغلال الـ«سايبا» كسيارة أجرة، فضلاً عن تمتعها ببعض مواصفات السيارات الحديثة، وفي مقدمتها احتواؤها على منظومة تدفئة وتبريد، هي ما تدفع الكثير من العراقيين إلى الاستمرار باقتنائها. وهي ما تجعلهم قادرين على غض النظر عن كون السيارة التي يستقلونها أشبه بنكتة تسير على عجلات، بنظر الشارع العراقي.

أمجد صلاح

كاتب صحافي من العراق

حلـــم ..

يوسف عبدلكي/سوريا

arabi.assafir.com

إقرأوا على موقع «السفير العربي»:
ـ عزيز تبسي: لا خيارات لبابا نويل في سوريا
ـ غادة أسعد: الفلسطينيات العاملات في الزراعة
يستقبل الموقع مساهماتكم وتعليقاتكم واقتراحاتكم.
ـ تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي ـ Assafir Arabi
ـ تواصلوا معنا على «تويتر»: @ArabiAssafir

.. بألف كلمة

فلسطين، قرب الناصرة.. دقّت ساعة ٢٠١٣ (أ ب)

عوّامة في النيل مزركشة احتفاءً برأس السنة الجديدة (رويترز)

برج خليفة في دبي، أعلى مبنى في العالم، كلّفت زينته ملايين الدولارات! (إي بي آي)

مدونات

«بغـــداد»

تهوى مدونة «بغداد» جمع الصور. قليلة هي النصوص والتدوينات المكتوبة. في آخر تدوينة عرض لصور من «طفولة» زعماء العراق الجدد. في ما سبق صور لملكات جمال العراق بين عامي ١٩٥٠ و١٩٧٢. صور جسور بغداد في غوغل كان لها حصّتها أيضاً: «جسر الشهداء، جسر الأحرار، جسر السنك». لا تعريف عن صاحب المدوّنة، سوى الكشف عن نزعته أو نزعتهم لاستعادة كل ما هو قديم من بغداد.

حتى طريقة كتابة كلمة «بغداد» في أعلى المدونة باللون الذهبي، تحمل الكثير من الاعتزاز والحبّ للمدينة. الذكريات: من أول سيارات دخلت بغداد إلى المنتخب الوطني العراقي لكرة القدم عبر التاريخ، وصور لأمكنة قديمة مختلفة... التدوينة نشيطة ولكن حركتها ليست متقاربة، وهذا يعود إلى ندرة المادة التي تجمعها.

تخرج المدونة عن موضوعها لتنشر في التجديد ما قبل الاخير صور ملكة جمال بنغلادش! على يسار صفحة المدونة تتسمّر صورتين رئيسيتين، الأولى تخصّ الخبز العراقي، والثانية للـ«صوبه»، أي المدفأة التقليدية.

بدأت «بغداد» رحلتها عام ٢٠٠٩. وهي منذ ذلك الوقت مستمرّة في جمع تراث وقديم بغداد. ولا تخلو المدونة من النصوص الشارحة لتفاصيل صغيرة غابت أو في طريقها للاندثار.

http://bagh-dad.blogspot.com/

«معتقلو الامارات»

وصل عدد المعتقلين في السجون الإماراتية إلى ٦٨ معتقلاً. وهؤلاء هم من الناشطين المطالبين بالإصلاحات السياسية داخل البلاد، ينشطون فقط عبر شبكة الانترنت. ولم تعلن السلطات الإماراتية حتى الآن عن التهم الموجهة إليهم، أو موعد محاكمتهم ولا حتى مكان احتجازهم.

تجتمع أخبار هؤلاء المعتقلين بكلّ تفاصيلها في مدونة «معتقلو الإمارات». القيّمون على الصفحة يعرّفون عن مدونتهم بأنها مجرّد «صفحة تضامنية من الشباب العربي مع معتقلي دعوة الإصلاح في الإمارات».

لا تدوينات خاصّة، فما يجري هنا هو تجميع للأخبار والمعلومات في محاولة لإيجاد حالة تضامنية. في التدوينة الأخيرة، عرض لما ورد في تقرير المركز الدولي لدعم الحقوق والحريات. لكن تعديلاً بسيطاً جرى في الأسطر الأخيرة، على اعتبار أن المعتقلين هم ٧٢ شخصاً بينما بيان المركز أعلن أنهم ٦٨.

يصل عدد زوّار المدوّنة إلى أكثر من ٦٠ ألفاً. لا اهتمام بالشكل، فكلّ تدوينة تختلف عن الأخرى لناحي نوعية الخطّ والألوان. يحتل صدارة المدونة العلم الإماراتي مع صورة تجمع المعتقلين وشعار «الحرية للمعتقلين». لا شخص محدّداً مسؤول عن المدونة ويبدو أن العمل جماعي. وهناك جهد كبير يُبذل فيها سعياً لإطلاق سراح المعتقلين.

http://lujrg.blogspot.com/

Message To The Tricontinental

تستقبل مدونة «كيّال» زوارها باللون الأسود القاتم، مع اهتمام بالشكل والألوان. في أعلى الصفحة الرئيسية صورة من الانتفاضة الفلسطينية كُتب عليها «رسالة إلى القارات الثلاث». وفي أسفلها تصطفّ باللون الأصفر صور شخصيات كان لها تأثيرها في العالم، منها محمد البوعزيزي، تشي غيفارا، عبد الكريم الخطابي، فرانز فانون...

تدمج التدوينات بين الفصحى والعاميّة. والتدوينات باللهجة العاميّة تمتلئ باللهجة الفلسطينية المحكية، ما يُضفي جماليّة على النصوص. يدمج مجد كيّال، الشاب الفلسطيني، بين الشخصيّ والعام في مدونته. فهو في التدوينة الأخيرة مثلاً، وجّه رسالة إلى صديقته وداد مستكملاً معها نقاشاً كانا قد بدآه في يوم سابق. المساواة والحرية كقيمتين كانتا محور حديثهما، اعتراض مجد جاء على إصرار صديقته وداد على فصل القيمتين عن بعضهما والتعاطي معهما كسياقين معرفيين منفصلين.

تجمع المدونة بين الصور والنصوص والفيديو. ولا تقتصر على الأمور العامة، إذ تطلّ السيدة فيروز بفيديو لأغنيتها «ما بيعرف طريقه حدا». واشتغل مجد على فيديو يقدم أغنية فيروز، فحذف بعض الكلمات، كاتباً: «حُذفت من كلمات الأغنية أدناه، بعض الكلمات. وهذا الحذف، عمليّاً، هو التدوينة بنفسها».

http://kayyal.blogspot.com/